المسيحية ودورها في التحول الاجتماعي في إفريقيا

أ. أحمد محمد أحمد إسماعيل
باحث سوداني مهتم بالشؤون الإفريقية

يعتبر الدين أحد أدوات التغيير الاجتماعي، نظراً للالتصاق الوثيق بين الدين والمجتمع بشكل عام والدين وسلوك الفرد بشكل خاص، فهناك العديد من العوامل الاجتماعية التي تعين على فهم أي مجتمع وبخاصة معرفة نظمه وتقاليده وطباعه، ومن أبرز هذه الحقائق (الدين)، هذا الأمر ينطبق على المسيحية في إفريقيا، وغيرها من الأديان.

وقد وصلت المسيحية إلى إفريقيا في مرحلتين: الأولى باكرة جداً، منذ القرن الأول الميلادي، على يد بعض حواريي المسيح عليه السلام، وبعض المسيحيين الأوائل، ولكنها كانت منحصرة في مصر وشمال إفريقيا وإثيوبيا، ولاحقاً بلاد النوبة، ثم انحسرت تلك المسيحية الأولى بعد ظهور الإسلام، في ظاهرة غريبة، ولم يبق لها وجود إلا في مصر وإثيوبيا.

أما المرحلة الثانية، المتأخرة نسبياً، فتبدأ مع قدوم المنصرين الأوروبيين، إلى ما يُعرف بإفريقيا جنوب الصحراء، تحت لافتة ما يُسمى بـ«حملات الكشوف الجغرافية»، التي بدأت في القرن الخامس عشر الميلادي، وتواصلت تدفقات المنصرين على القارة، لتتكاثف بشكل ملفت خلال القرن التاسع عشر، وتستمر إلى اليوم في أشكال متعددة.

واعتمدت المسيحية في تمددها في إفريقيا، بشكل كبير، على القوة العسكرية والسياسية، ممثلة في الحملات الاستعمارية والسلطات التي أنشأتها.

إن علاقة المسيحية بالمجتمع الإفريقي علاقة معقدة جداً، فهناك اختلافات جوهرية بين طبيعة تعاليم المسيحية ومعتقداتها، وطبيعة الإنسان الإفريقي وثقافته وعاداته، ولكن النصرانية اعتمدت في تمددها على تحالفها الإستراتيجي مع السلطة الاستعمارية، كما استخدمت التعليم ووظفته لصناعة النخب الوطنية، التي خلفت المستعمر في الإمساك بمقاليد الحكم في الدول الإفريقية.

وقد اضطرت المسيحية، بشكل سافر، للتخلي عن كثير من أصولها العقائدية لصالح المعتقدات المحلية الإفريقية، من أجل الحفاظ على وجودها من التلاشي، بسبب انصراف كثير من أتباعها عنها إلى الإسلام، أو العودة لجذورهم الإفريقية، مما أدى إلى تشكل «مسيحية إفريقية» خاصة، ضمن ما يُعرف بـ«اللاهوت السياقي».

التحولات الاجتماعي التي أحدثتها المسيحية في إفريقيا يمكن تصنيفها، جزئياً، في خانة الاختلالات، من قبيل ترسيخ مفهوم التبعية للغرب، والازدواجية في الهوية الدينية، وجزءٌ منها يمكن اعتباره تحولات إيجابية لا تخلو من إشكالات، مثل نشر التعليم، ونشر الرعاية الصحية والمساهمة في علاج الأوبئة والأمراض.

مدخل مفاهيمي:

أولاً: المسيحية النصرانية:

يُعرّف قاموس (مريام وبستر) «المسيحية» بأنها: «الدين المستمد من يسوع المسيح، ويستند على الإنجيل بوصفه كتاباً مقدساً، وتؤمن به طوائف الروم الكاثوليك الشرقيين، والبروتستانت»[(١)].

وتعرّفها دائرة المعارف البريطانية بأنها: «الديانة التي تعزو أصلها إلى يسوع الناصري، وتؤكد أنه «المسيح» المختار من الله»[(٢)].

ولم يستخدم القرآن الكريم، ولا السنة المطهرة، كلمة «مسيحية» أو «مسيحي» أو «مسيحيين» لوصف شريعة عيسى عليه السلام ومن يدينون بها، بل استخدم كلمة «نصرانية» «نصراني» و«نصارى»، وفي التنزيل: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

أما استخدام كلمة «مسيحيين» للدلالة على أتباع المسيح عيسى عليه السلام؛ فهو استخدام حادث، متأخر عن زمن المسيح عليه السلام، الذي لم يسمّ أتباعه مسيحيين، حسب الإنجيل، وأول ما دُعيَ النصارى بـ«المسيحيين» كان في أنطاكية حوالي سنة ٤٢م، ويرى البعض أن ذلك أول الأمر كان من باب الشتم[(٣)].

---

(١) Webster's New World College Dictionary, 4th Edition. Houghton Mifflin Harcourt

(٢) Encyclopedia Britannica, Chicago, London: Encyclopedia Britannica (William Benton Publisher) 1965, vol 5 .693

(٣) سعود بن عبد العزيز الخلف، دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، مكتبة أضواء السلف، الرياض، السعودية، ط٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص (١٦٣-١٦٤).

ثانياً: اللاهوت السياقي والمسيحية السياقية الإفريقية:

يُقصد باللاهوت السياقي محاولة العقائد والممارسات المسيحية إيجاد تعبير لها داخل السياق الثقافي والاجتماعي المعيّن، ويرى «جويل مخواثي» Joel Mokhoathi، وهو أستاذ لاهوت بجامعة «فري ستيت» بجنوب إفريقيا، أن إضفاء الطابع السياقي على المسيحية في إفريقيا تمثل في محاولة التوفيق بين المعتقدات الإفريقية والمسيحية، وأدى في النهاية إلى ظهور المسيحية الإفريقية، وهي «اندماج المسيحية والدين الإفريقي التقليدي».

ويشير مخواثي إلى أن هناك تحركاً بارزاً نحو المسيحية السياقية في المنح الدراسية الإفريقية، وإلى وجود عدد كبير من العلماء الأفارقة ينادون بإضفاء الطابع السياقي على المسيحية، والتي تهدف إلى توفير رابط بين: الأسس الثقافية الإفريقية، والمسيحية[١]. ولكنه يرى أن اندماج المسيحية والدين الإفريقي التقليدي- أو ما يُعبّر عنه بـ«المسيحية الإفريقية»- يتغاضى عن جوهر الديانتين، حيث يتم التعبير عن عناصر دين واحد من خلال الديانة الأخرى.

ويرى غويني موزوريوا Gwinyai, Musorewa أن هدف اللاهوت السياقي الإفريقي هو بناء لاهوت ذي صلة بالكتاب المقدس ومبني عليه، يمكنه تلبية الاحتياجات الروحانية للشعوب الإفريقية، لأن اللاهوت المستورد- في نظره- ليس كافياً لتلمس قلوب المؤمنين الأفارقة، لأنه مصاغ بلغة غريبة عنهم. وأنه من الأفضل ترك التراث الثقافي والديني الإفريقي لعلماء اللاهوت الأفارقة؛ لأنهم يعرفون الكيفية المثلى لوضع المسيحية في سياقها بطريقة يمكنها التواصل بشكلٍ كامل مع ثقافتهم الإفريقية وتراثهم الديني[٢].

تاريخ دخول المسيحية إفريقيا:

عرفت إفريقيا المسيحية في مرحلتين تاريخيتين متباعدتين جداً، المرحلة الأولى تبدأ منذ القرن الأول الميلادي حتى القرن الرابع، حيث استقرت المسيحية في مناطق محددة من القارة، وبالتحديد مصر وشمال إفريقيا، والحبشة. أما الثانية فتبدأ مع ظهور ما يُعرف بـ«الكشوفات الجغرافية الأوروبية»، على يد أوائل المستكشفين الذين وصلوا غرب إفريقيا، وتوغلوا منها إلى وسطها، وذلك بدءاً من القرن الخامس عشر الميلادي.. ويلاحظ الفارق الزمني الكبير بين الفترتين.

المسيحية والاستعمار:

دخلت المسيحية إفريقيا في كنف الاحتلال الأوروبي للقارة، وكان المنصرون وبعثاتهم التبشيرية طلائع متقدمة للاستعمار الأوروبي، الذي يوفر لها الحماية، ويمنحها الامتيازات والأراضي، ويسهّل لها تأسيس المنشآت، وفي المقابل كانت النصرانية تساعد المستعمر بتزيين الخضوع للوطنيين، بجانب ربط النخبة التي تلقت تعليماً في مدارسها الكنسية بالحضارة الغربية، وتزيينها لهم، وتشجيعهم على ازدراء الثقافة الوطنية والعادات والتقاليد. تلك النخب التي تلقت تعليماً كنسياً أصبحت فيما بعد أذرع الاستعمار في السيطرة على بلدانهم، حتى بعد انسحابه منها.

وفي عام ١٨٦٨م أسس الكاردينال الفرنسي الكاثوليكي لافيجيري Lavigere، بالجزائر، جمعية تنصيرية باسم «الآباء البيض»[٣] لنشر النصرانية في إفريقيا، وبخاصة مناطق النفوذ الفرنسي في الصحراء

(١) Joel Mokhoathi, From Contextual Theology to African Christianity, the consideration Adiaphora From South African Prespetive, MDPI, Basel, Switzerland 2017.

(٢) Musorewa, Gwinyai.H. The Orgins and Development of African Theology, Maryknoll: Orbis Books 1985., pages (96-97).

(٣) د. عبد الرزاق عبد المجيد ألارو، التنصير في إفريقيا، (رابطة العالم الإسلامي/ سلسلة دعوة الحق- كتاب شهري محكم، السنة ٢٣، العدد ٢٢٧)، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص (٧٦-٧٧).

العربية، والسودان الغربي وما تلاها من الديار الإفريقية، وكان مبدأ لافيجيري يقوم على أن «الكنيسة الكاثوليكية هي النصير الوفي لحركة التوسع الاستعماري الفرنسي في كل رقعة تمتد إليها يد القوى الأوروبية»[١].

المسيحية والتحول الاجتماعي في إفريقيا:

نظرة المسيحيين للعنصر الإفريقي تقوم على المفاهيم التوراتية التي ترى أن «أبناء حام محكومٌ عليهم أن يكونوا عبيداً لأبناء سام»؛ بحسب الرواية المفتراة على النبي نوح عليه السلام، بالتالي عندما جاء المستعمرون البيض إلى إفريقيا كانوا مدفوعين بهذا النوع من الوصاية الممزوجة بالاستعلاء العرقي، وبهذا المنطق ارتُكبت المجازر بحق الوطنيين تحت سمع الكنيسة وبصرها، واختُطف مئات الآلاف من الإفريقيين من قراهم الآمنة، بمباركة الكنيسة، ليباعوا عبيداً في أسواق الأمريكيتين.

بهذا المنطق نفسه كان تعامُل الكنيسة مع الثقافة والأعراف الاجتماعية الإفريقية، فقد كانت في نظرها تُرَّهات يجب إلقاؤها في المزبلة، وهو ما كان يثير حفيظة الوطنيين الأفارقة، فيقومون بقتل المنصرين، فتتخذ الدول الاستعمارية مقتل ذلك المنصر ذريعة للتدخل والسيطرة على الأرض ومقدراتها، بوصفها حقاً توراتياً!

ورد في خطاب أرسله الرئيس الزامبي السابق كينيث كاوندا، أيام النضال ضد الاستعمار، إلى أحد رؤساء الإرساليات الكنسية: «حينما يريد رجل إنجليزي سوقاً لبضائعه الفاسدة التي صنعها في مانشستر؛ فإنه يرسل مبشراً لتعليم الأهالي بشارة السلام، ويقتل الأهالي المبشر، فيهُبّ الإنجليزي لحمل السلاح دفاعاً

هناك اختلافات جوهرية بين طبيعة تعاليم المسيحية ومعتقداتها، وطبيعة الإنسان الإفريقي وثقافته وعاداته

عن المسيحية، ويحارب من أجلها، ثم يستولي على السوق مكافأةً من السماء!»[٢].

وبعد عقودٍ طويلة انسحب الاستعمار الأوروبي من إفريقيا، وغادرها حسيّاً، وفي ذلك الوقت كانت الكنيسة قد حققت انتشارها الكبير في إفريقيا جنوب الصحراء، رأسياً وأفقياً، حيث سيطرت النخب التي أعدتها- على أعينها- على مقاليد الحكم في بلدان القارة، وأصبح التعليم والصحة والثقافة والإعلام بيد الكنيسة، وتزايدت أعداد المنتمين للمسيحية، على الأوراق الرسمية، بشكلٍ جعلهم يشكّلون أغلبية سكان القارة جنوب الصحراء، بحسب إحصائيات الكنيسة والمراكز البحثية المرتبطة بها.

صاحب ذلك تأثيراتٌ واضحة في حياة المجتمعات الإفريقية، أحدثت تحولات كبيرة على مستوى الثقافة والعادات والتقاليد وأنماط السلوك الاجتماعي، والأخلاق والقيم، حتى طالت تلك التحولاتُ الهويةَ والانتماء.

وصحيحٌ أنه كان من بين ذلك تحولات إيجابية، حيث اضطلعت الكنيسة بالدور الأكبر في إيقاف «تجارة الرقيق»؛ على الرغم من أنها نشطت تحت مباركتها

(١) د. حسن مكي محمد أحمد، المشروع التنصيري في السودان ١٨٤٣-١٩٨٦م، (المركز الإسلامي الإفريقي- الخرطوم، إصدارة ١١)، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ص (١٩-٢٠)، ناقلاً عن القاموس الكاثوليكي: William E Adis, et., A Catholic Dictionary, London. p.14.

(٢) جاك مندلسون، الرب والله وجوجو (الأديان في إفريقيا المعاصرة)، ترجمة إبراهيم أسعد، ص ١٥١، نقلاً عن أحمد عبد الوهاب، حقيقة التبشير بين الماضي والحاضر، مكتبة وهبة، ط١، القاهرة ١٩٨١م، ص١٣١.

في مبدأ الأمر، كما ساهت بصورةٍ كبيرة في إيقاف بعض الممارسات مثل «المحاكمة بالسموم»، وساهمت في محو الأمية ونشر التعليم على نطاقٍ واسع، لأغراضها التبشيرية بالطبع، وخدمات الصحة.. إلخ. إلا أنها كذلك أنشأت تحولات سلبية كبيرة طالت بنية المجتمعات الإفريقية.. لاحَظَ ذلك كثيرٌ من الباحثين الأفارقة والغربيين، بمن فيهم بعض المنتمين إلى الكنيسة، وأساتذة اللاهوت.. وفيما يلي نشير إلى أبرز تلك التأثيرات:

١- التغريب وتكريس التبعية الثقافية للمستعمر:

يشير «ماتسوبان جي منالا»، أستاذ الفلسفة وعلم اللاهوت العملي والمنهجي بجامعة جنوب إفريقيا- بريتوريا، إلى هذا الجانب بوضوح، بقوله: «على الرغم من ادعاءات المبشرين بأنهم مهتمون بحماية الشعوب الأصلية، وحماية مصالحهم، تظل الحقيقة أن بعض المبشرين سعوا على الأقل إلى تعزيز مصالح أسيادهم المستعمرين وثقافتهم».. وينقل عن متوز Mtuze تأكيده، في دراسةٍ أجراها حول روحانية «الزوشا» Xhosa أسماها «إزاحة الثقافة الإمبريالية وتأثير النصرانية فيهما بالتطبيق على منطقة شرق كيب تاون»، حيث يقول: «تُظهر الدراسة بوضوحٍ شديد أن المبشرين، بوعي أو بغير وعي، لديهم أجندةٌ مزدوجة؛ من حيث إنهم كانوا أيضاً بحكم الواقع عملاء للقوى الاستعمارية التي أخضعت انتشار المسيحية للإمبريالية الثقافية والسياسية»[١]، ويعلق «منالا» بقوله: «لهذا السبب؛ كان الكثير من أساليب الحياة في إفريقيا مستهجناً، إن لم يكن شيطانياً بالكامل»[٢].

وعملت الكنائس من خلال المناهج التعليمية على تكريس التغريب، وعدم احترام الثقافات الإفريقية المحلية، كما حرصت على تقديم تعليم متواضع غير مواكب، إلا بالقدر الذي يحقّق عمليتَي التنصير والتغريب واستلاب الشخصية الإفريقية، ويظهر ذلك في اللغة، والأسماء، وشيوع نمط الاستهلاك الغربي، وقد «صرّح بعض الطلاب الذين ظهروا في إرسالية «ليفنجستونيا» وإرسالية «بلانتاير» في مالاوي بأنهم اسكتلنديّون سود، أما الكريوليّون والسيراليّون فكانوا يختارون لقبَين أوروبيّين، ويربطون بينهما بواصلة... كما جاءت أشعار سينغور الذي أعطى أعماله كلّ اختلاجات الروح الكاثوليكية معبّرةً عن الاستلاب الحضاري الثقافي الإفريقي»[٣].

٢- أزمة الهوية الإفريقية:

وكجزءٍ من تكريس التبعية الغربية؛ عملت الكنائس بشكلٍ واضح على غرس الاحتفاء بنمط الحياة الغربية لدى أتباعها من الأفارقة، مصحوباً بازدراء أساليب حياتهم الموروثة، باعتبارها أرجاساً، وطال ذلك حتى الأسماء الإفريقية، حيث قام أتباع الكنيسة والمنتسبون إلى مؤسساتها التعليمية إلى تغيير أسمائهم الإفريقية، والتسمي بالأسماء الكنسية الأوروبية.

وينبّه متوز Mtuze في دراسته- سالفة الذكر- إلى أن تصنيف الكنيسة بعض الممارسات الإفريقية على أنها وثنية، خصوصاً تلك المتعلقة بالأسرة، تسبَّب فيما أسماه: «أزمة هوية خطيرة للعديد من الأفارقة»، وهي أزمة أدت إلى الكراهية الذاتية الإفريقية وتحقير الذات.

ولاحقاً أدت القواعد الصارمة التي فرضتها الكنيسة على أتباعها، فيما يتعلق برفض الممارسات الطقوسية الإفريقية، أدت إلى نشوء أزمة هوية ثقافية لدى هؤلاء الأتباع، وذلك بسبب التنازع بين تقاليد مجتمعات هُم

(١) Mtuze, PT, The essence of Xhosa spirituality and the nuisance of cultural imperialism, (Hidden presences in the spirituality of the Eastern Cape and the impact of Christianity on them). Florida Hills: Vivlia 2003.

(٢) Matsobane J Manala, The impact of Christianity on sub-Saharan Africa, Studia Historiae Ecclesiasticae, vol.39 n.2 Pretoria Feb. 2013.

(٣) أحمد عمرو، «آثار التنصير.. قراءة في تداعياته على بنية الدولة والمجتمع»، مقال منشور ضمن كتاب (التنصير في إفريقيا أساليبه ووسائله وآثاره)، إصدارات قراءات إفريقية- ٣، ص (٧٣- ٧٤).

جزءٌ منها، وبين ما تفرضه عليهم الكنيسة دون أن تتشكل لديهم القناعات الكافية بالفوارق الإيمانية بين موروثاتهم والعقيدة الجديدة التي تحوّلوا إليها.. الأمر الذي أدى إلى نتيجتَين: طائفة عزلت نفسها عن مجتمعاتها وازدرتها وذابت في أشكال الحياة الأوروبية، ومجموعة أخرى ربطت نفسها ظاهرياً بالتعاليم الكنسية، ولكنها في السر كانت تمارس الطقوس الإفريقية التقليدية؛ في ازدواجيةٍ واضحة.

تقول «فريدا إيهموان» Freda Ehimuan- وهي لاهوتية إفريقية مختصة في الروحانية التطبيقية-: «بالنسبة للأفارقة، من المستحيل فصل الممارسات المسيحية عن خلفيتهم الثقافية، كان هذا خطأ المبشرين الذين جاؤوا لتبشير إفريقيا، كان جعل المسيحية ديناً ينأى بنفسه عن الطقوس والأدوات الدينية الإفريقية عائقاً كبيراً، سمعت أنه خلال سينودسهم قال الأساقفة الأفارقة: إن المسيحية منتشرة في إفريقيا، ولكن الجلد عميق».

والتعبير الأخير «المسيحية منتشرة في إفريقيا، ولكن الجلد عميق» يشير بوضوح إلى حالة «التديّن السطحي» للنصارى الإفريقيين، وأن الأرقام الضخمة التي تشير إليها الإحصائيات هي مجرد انتفاخ وهمي، فالمسيحيون الأفارقة هُم رسمياً وعلى الأوراق نصارى بحكم التعميد، ولكن في واقع الحال ما زالوا على معتقداتهم وأديانهم الموروثة.

وتشير «فريدا» إلى بعض نتائج هذا الصراع النفسي لدى المسيحيين الذين لم تستطع الكنيسة انتزاعهم من إيمانهم بالاعتقادات والطقوس في مجتمعاتهم المحلية، بقولها: «كان المسيحيون، يحاولون إقناع أنفسهم بأن الآلهة الإفريقية لا حول لها ولا قوة.. ورأوا بعض الانهيار تحت آثار فعل الرجاسات، مثل حرق المزارات أو قتل الحيوانات التي يحرم قتلها، نتيجةً لذلك أصبح المسيحيون خائفين من هذه الآلهة الإفريقية وقدرتها على معاقبتهم.. بينما كانوا يمارسون المسيحية في المدن والبلدات؛ دفعوا سرّاً للشيوخ لمساعدتهم على تقديم التضحيات اللازمة في القرى لإرضاء الآلهة. بهذه الطريقة بدأت المسيحية تفقد سيطرتها على الأفارقة الذين كانوا يخشون آلهتهم أكثر من الرب في المسيحية»[١].

وتمكن الأفارقة، بتكلفة باهظة (بما في ذلك الموت)، من إنقاذ احترام الذات وحب الذات والاعتزاز بسوادهم، ويرجع الفضل في ذلك إلى حدٍّ كبير إلى حركة الوعي الأسود في جنوب إفريقيا وأماكن أخرى في إفريقيا. ونتيجةً لذلك اختار بعض الأفارقة في جنوب إفريقيا استخدام أسماء إفريقية بدلاً من أسماء مسيحية[٢]، وفي زائير (الكنغو الديمقراطية) عام ١٩٧٤م أطلق الرئيس موبوتو سيسي سيكو، وهو مسيحي كاثوليكي، دعوته التي أسماها «العودة إلى الأصول»، التي ألزمت الزائيرين بإلغاء الأسماء الأوروبية واتخاذ أسماء إفريقية، وأبطل كل الاحتفالات المسيحية، وأبطل عطلات الأعياد المسيحية الرسمية، وأصبح العمل إجبارياً أيام أعياد الميلاد[٣].

ويتضح مما سبق؛ أن المسيحية في إفريقيا لم تتمكن من تقديم نموذج متكامل، يُخرج المسيحي الإفريقي من اعتقاداته وطقوسه التقليدية، التي هي مزيج من الموروثات التي تجمع بين الاعتقادات والطقوس، والرسوم المجتمعية، والقيم، لأنها كما تقول «فريدا»: «ليست ثقافة بل تجربة إيمانية»، لم تستطع أن تقدم ذلك النموذج المتكامل الذي قدّمه الإسلام للأفارقة، فكانت النتيجة هي ظهور نمط جديد من التديُّن، عُرف بـ«المسيحية الإفريقية».

---

(١) Freda Ehimuan, In Africa, cultural expressions accompany Christian practices,An Article in: https://www-globalsistersreport-org.translate, Jul 13, 2021.

(٢) Pityana, NB, The renewal of African moral values, in African Renaissance, edited by Malegapuru William Makgoba. Sandton: Mafube Publishing (Pty) Limited and Cape Town: Tafelberg Publishers Limited, 1999. 138.

(٣) د. حسن مكي، مصدر سابق، ص١٣٢.

٣- اللغة:

كانت اللغة العربية هي لغة الكتابة والعلوم، بل ولغة التجارة السائدة في عدد من المناطق في إفريقيا، وخاصة في السواحل الشرقية ومنطقة السودان الغربي، قبل قدوم المستعمر الأوروبي، وتشهد بذلك كنوز المخطوطات العربية والإسلامية في تنبكتو وغاو وغيرها من المدن والحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا، كما كانت كثيرٌ من اللغات الإفريقية المنتشرة تُكتب بالحرف العربي، بل واكتسبت كثيراً من مفرداتها من اللغة العربية، مثلما هو الحال مع اللغة السواحلية. وعندما جاءت البعثات المسيحية إلى إفريقيا، ودخلوا بمؤسساتهم المختلفة، حاربت اللغات المحلية التي نقلت الثقافة الشفاهية، وحاربت اللغة العربية في الغرب والشرق التي نُقلت بها الثقافة الكتابية، الأمر الذي كان له انعكاساته السلبية على الهوية الإفريقية.

٤- خلخلة التماسك الاجتماعي:

مارس تعليم الإرساليات دوراً كبيراً في قمع القبيلة، وتقويض المجتمع الإفريقي، حيث أدانوا كل عاداته التي تشكّل دوراً مهمّاً في الحفاظ على القبيلة والمجتمع، وأصبح المتحولون إلى المسيحية «مجموعة» أو «مجتمعاً» قائماً بذاته بين الأفارقة، لا علاقة له بالتقاليد الاجتماعية القائمة على القرابة والهياكل القبلية.

ومن المسائل المهمة التي دفعت المبشرين إلى محاربة العادات والتقاليد القبلية: أن بعض تلك العادات، مثل طقوس التنشئة مثلاً، تحول بينهم وبين الوصول إلى الأولاد في أعمار معيّنة، حيث كانت طقوس التنشئة في الأعراف والعادات الإفريقية تقوم على عزل الأولاد في أعمار معيّنة، مع الخضوع لحراسة مشددة من الرجال، وكان المبشرون يرون ذلك نوعاً من المجتمع السري الذي لا يعرفون عنه شيئاً ولا يؤثرون فيه، ولا يُمكِّنهم من السيطرة على الأولاد[١].

(١) Pityana, NB, previous ref

وهناك جانبٌ آخر، على الصعيد الاجتماعي، وُوجهت فيه الكنيسة بانتقادات، وهو المتعلق بتغيير موروثات التماسك الاجتماعي، بمعنى أن المجتمعات الإفريقية كانت، قبل قدوم المسيحية إليها، متواطئة على تقاليد تعبّر عن مسؤوليتها تجاه أفرادها، وكان احترام الأسرة والقرابة هي أهم تلك الموروثات، وبالتالي تتوفر بصورة عفوية كل أشكال الرعاية والحماية للضعفاء من أفراد المجتمع، مثل العجزة والأيتام وغيرهم، ولكن الكنيسة من أجل استغلال ضعف الضعفاء لجلبهم للكنيسة والانفراد بعملية تحويلهم إلى المسيحية، أدخلت أنماطاً جديدة أدت إلى إضعاف دور الأسرة والقبيلة الممتد في رعاية أفرادها الضعفاء، ومن تلك الأنماط بيوت رعاية الأيتام، ودور العجزة والمسنين، إلخ.

ومن أبرز القادة الذين وجّهوا انتقادات للمسيحية، في هذا الجانب، رئيس جنوب إفريقيا السابق جاكوب زوما، حيث يُنقل عنه قوله: «المسيحية، التي أدخلها المبشرون الأوروبيون بشكلٍ رئيسي في القرن التاسع عشر، دمرت شبكة الأمان للأيتام والمسنين والفقراء»، كما نُقل عنه حديثه عند إطلاق حملة توعية بالسلامة على الطرق والجريمة، في مقاطعة كوازولو ناتال، قائلاً: «كأفارقة، قبل وقت طويل من وصول الدين والإنجيل، كان لدينا طرقنا الخاصة في فعل الأشياء، كانت تلك الأوقات التي يشير إليها المتدينون على أنها أيام مظلمة، ولكننا نعلم أنه خلال تلك الأوقات لم تكن هناك منازل للأيتام والعجزة.. وقد جلبت المسيحية هذه الأشياء»[٢].

٥- نشر التعليم:

تفاخر الكنيسة في إفريقيا، بدورها الأساسي الذي لا يمكن تجاهله في نشر التعليم في إفريقيا، وإن كان قد سبقها الإسلام الذي ازدهرت حواضره بالمدارس

(٢) Smith, David. 2011. Jacob Zuma blames Christianity for breakdown of South African traditions, The Guardian, Wednesday 21 December 2011, 17.02 GMT. Available: http://www.guardian.co.uk/word/2011/dec/21/Jacob-zuma-blames-christianity. Accessed on 2012/11/19.

والجامعات، سواء في الشرق أو السودان الغربي، وتتباهى الكنيسة بإنشاء المدارس في أصقاع إفريقيا النائية، ومن المبشرين كتب «جيفورد» Gifford: «لديهم تاريخ طويل ومهم في إفريقيا، ومساهمتهم في الصحة والتعليم معروفة جيداً، وهذا الأمر متواصل، بل ما زال يتكاثف.. أحد التقديرات يعطي ٦٤ بالمائة من الجميع مؤسسات التعليم في كينيا قائمة على الكنيسة، وقد بذلت بعض الحكومات مثل حكومة زامبيا جهوداً لعكس تأميم التعليم الذي حدث بعد الاستقلال»[١].

وكان المنصّرون هم أول من بدأ التعليم الغربي في إفريقيا جنوب الصحراء، ففي أوغندا مثلاً ظل التعليم في أيديهم قرابة نصف قرن (١٨٧٧-١٩٢٥م)[٢]، وفي السودان افتُتحت أول مدرسة تحت إدارة الكنيسة عام ١٩٠٢م، وكانت مدرسة للبنات القبطيات تحت إدارة المطران لليان قويني، وتبعتها مدرسة للأولاد في العام نفسه[٣]، ثم تتابعت مدارس الإرساليات في عدد من مدن السودان تحت رعاية الحكومة الاستعمارية.

وفي كثيرٍ من الأقطار الإفريقية سلّمت الحكومات الاستعمارية مسؤولية التعليم وإنشاء مؤسساته للهيئات التبشيرية، ومنحتهم حرية التصرف في هذا المجال، وفي الواقع لم تنشأ المدارس النظامية الأهلية، في كثيرٍ من الدول الإفريقية الإسلامية، إلا ردة فعل لاحتكار المنصّرين للتعليم النظامي، عن رضا من الدولة، مطلقة اليد.

وصحيحٌ أن مدارس الإرساليات ساهمت بقدرٍ كبير في محو الأمية ونشر المعرفة، ولكنها كانت بالدرجة الأولى موجهة لخدمة الأغراض التنصيرية، وما زال التعليم حتى يومنا هذا هو أول وسائل الإرساليات لنشر النصرانية وتحويل الناس إليها.. وفي هذا المقام يؤكد «أورش» Urch أن التعليم العام كان مسؤولية الجمعيات التبشيرية، و«كان يهتم في المقام الأول بالقراءة والكتابة بهدف التبشير وتدريب المعلمين الأفارقة»[٤].

ويحكي المطران قويني، أشهر المنصرين في السودان إبان الفترة الاستعمارية، وقد كان القانون في أول عهد الحكم الاستعماري يحظر ممارسة أنشطة تبشيرية مباشرة في شمال السودان، يحكي ردة فعله عندما أبلغه الحاكم العام بنبأ التصريح له بافتتاح مدارس في الشمال بقوله: «رقص قلبي فرحاً، وأيقنت أن الله استجاب لدعائي، فما الفرق بين رفض السماح لي بتنصير المسلمين والسماح لي بتعليم أطفالهم»!![٥].

وبجانب ذلك؛ عمل التعليم التنصيري على إحداث التغيير الثقافي والاجتماعي في بنية المجتمعات الإفريقية، وكان يرمي إلى هدفين: الأول فصل النخبة المتعلمة عن البنية الثقافية لمجتمعاتهم، والثاني غرس روح الثقافة الأوروبية وأنماطها الاستهلاكية.

لقد أثر التعليم اقتصادياً على إفريقيا، حيث أشاع الثقافة الاستهلاكية، واقتصاد السوق، وحطم النمط الاقتصادي المحلي الذي كان يقوم على أساس الاكتفاء الذاتي للإفريقي بالإنتاج البسيط، مستفيداً مما حوله من موارد، زراعية وحيوانية، ودمّر روح التكافل التي كانت تسود تلك المجتمعات، وانتهى بها إلى مجتمعات استهلاكية مولعة بالمنتجات الأوروبية الكمالية، التي في كثير من الأحيان لا تناسب البيئة الإفريقية.. ومع ضعف الإنتاج واتساع المدن، اتسعت دائرة الفقر والعوز والحاجة، وزاد الارتباط بالمستعمر واقتصاده الإمبراطوري، وتكرّست التبعية بصورة قاتلة.

وبالنسبة للمسلمين في المجتمعات الإفريقية؛ فقد أحجموا، في أول الأمر، عن إرسال أبنائهم للمدارس

(١) Gifford, P. 2008. Trajectories in African Christianity. International Journal for the Study of the Christian Church 8(4), 276.

(٢) د. عبد الرزاق عبد المجيد ألارو، مصدر سابق، ص٥٣.

(٣) د. حسن مكي، مصدر سابق، ص٣٦.

(٤) Urch, GE. 1971. Education and colonialism in Kenya. History of Education Quarterly 11(3), 254.

(٥) د. حسن مكي، مصدر سابق، ص١٥٢.

التبشـــيرية حفاظاً على دينهم، واعتمدوا على نظامهم التعليمـــي التقليدي المتمثل فـــي الخلاوي والمحاضر، ولكـــن لأن التعليم التبشـــيري كان متحالفاً مع الإدارات الاســـتعمارية، فقد احتكرت كل الوظائف المرموقة في الدولة لخريجي مدارس الإرســـاليات، وأصبح خريجو تلـــك المدارس هم النخبة المهيمنة على مفاصل الدولة فيما بعد، على حساب المســـلمين الذين تم إقصاؤهم عـــن صدارة المجتمـــع، بعد أن كانوا في الســـابق هم أهل الحظوة، والمقدمين في شـــؤون السياسة والتجارة والاقتصاد.. أما القلة القليلة التي لحقت بتلك المدارس؛ فمن نجا منهم من التنصير فقد سقط في براثن الثقافة الغربية العلمانية التي حولته إلى مسلم بالاسم فقط.

وهكـــذا؛ نـــرى التعليم الـــذي قدمته المســـيحية لإفريقيـــا، لم يكـــن خدمة بريئة، بـــل كان منطوياً على أهداف انتهازيـــة غيّرت وجه المجتمعـــات الإفريقية، وأعـــادت ترتيب ملامحهـــا وفقاً لما يخـــدم الأهداف الاستعمارية للدول الغربية.

٦- الحروب والصراعات:

وتظهـــر أيدي الكنســـية واضحة، فـــي العديد من مناطق النزاعات التي نشـــبت على أسس طائفية دينية في إفريقيا، مثل الحرب في جنوب الســـودان، التي تُعدّ أطول حـــروب إفريقيا، وأدت فـــي خاتمة المطاف إلى انقســـام السودان إلى شـــطرين، ومثل حرب بيافرا في نيجيريا، ومؤخراً الحرب الأهلية بإفريقيا الوسطى.

ولكن الحرب في جنوب الســـودان، التي اســـتمرت لأكثر من ٥٠ عاماً، كانت تمثل بوضوح الأيدي الكنســـية الموجهة ضد الإســـلام، فهي التـــي دبّرت، بالتعاون مع السلطة الاستعمارية، لإشـــعال تلك الحرب، وهي التي غذتهـــا في جميع مراحلها، حتـــى انتهت بفصل جنوب الســـودان وقيام دولة مستقلة فيه، ثم لم تفلح بعد ذلك في إخماد النيران التي أشـــعلتها في تلك الدولة الوليدة التي أنشأتها.

ففي عـــام ١٩١٠م شـــرع الحاكم العام للســـودان الجنرال «ونجت» في بناء الفرقة الاستوائية على أساس ديني مـــن العناصر الجنوبية التي تـــم تنصيرها، حتى تكون أساســـاً لجيش يمكن اســـتعماله ضد أي انبعاث إسلامي جهادي في الشمال.. ومنعت العناصر المسلمة من الانضمام إلى هذه الفرقة، وشُبِّعت بالروح الكنسية، وعُبِّئـــت ضد الثقافة العربية والإســـلام.. وما إن بدأت تباشير استقلال السودان، بعد تكوّن أول حكومة وطنية، قبل الإعلان الرسمي للاستقلال، حتى أوعزت الكنيسة للفرقـــة البالغ أفرادها ١٨٠٠ جندي بالتمرد، وكان قادة المتمردين كلهم مـــن الكاثوليـــك المتعصبين، ففتكوا بالرجال والنساء والأطفال المسلمين في الجنوب، وكان عـــدد الضحايا، ومعظمهم من النســـاء والأطفال، ٢٦١ شـــخصاً، قبل أن تتمكن الســـلطات من السيطرة على الوضع وإخماد التمرد.

وتصدت الكنيســـة لمعارضة الكثير من سياســـات الحكومة، مثل إعلان الجمعة عطلة رسمية في الجنوب، وغيرها، وفي أواخر الخمســـينيات بدأت ظاهرة فرار عدد كبير من القساوســـة للالتحـــاق بحركة التمرد في الخـــارج، وعلى رأس هؤلاء القســـس الفارين كان الأب «ســـاترينو لاهوري» الذي أصبـــح الأب الروحي لحركة التمرد، وهو الذي مكّـــن الحركة المتمردة الصغيرة من الاتصال بدوائر الكنيسة العالمية، التي وفرت احتياجات المتمردين من الغذاء والكساء والعلاج والسلاح.

وقامت الكنيســـة بدور المنســـق بيـــن الحركة السياسية للتمرد في الخارج، ومتمردي الداخل، وأثمر ذلك التنسيق إعادة تنظيم الجناح العسكري للحركة، الذي انطلق بعد مؤتمر عُقد لهذا الشأن عام ١٩٦٣م، وكان أكثر الفصائل العســـكرية نشـــاطاً الفيلق الذي يقوده المبشـــر الكاثوليكـــي «بيرناردينو موي»، الذي قاد الهجوم على معســـكر الجيش في واو، في يناير ١٩٦٤م، واستمرت حرب الجنوب السوداني طيلة ستة عهود من الحكم الوطني (عســـكري أو مدني)، بدعم كنســـي واضح وجلي، حتى انتهـــت بتواطؤ دولي على الفصل وإعلان دولة مســـتقلة في جنوب السودان في ٢٠١١م.

المسيحية الإفريقية.. هجمة ثقافية مرتدة:

منذ الوهلة الأولى، لوصولها إلى إفريقيا، وفي تلك الفترة المبكرة، اخترقت الثقافةُ الإفريقيةُ المسيحيةَ بشكلٍ مباشر، في أساسها العقائدي، فالبدايات الأولى للانحرافات العقدية الكبرى في النصرانية كان مسرحها مصر التي دخلتها النصرانية في القرن الأول، وحدثت نتيجةً لاحتكاك النصرانية الوافدة بالديانات المصرية القديمة وأساطيرها، المتعلقة بموت الإله، والقيامة، والتجسد، وتقديس الثالوث، ويرى بعض الباحثين[1] أن أساطير مصرية، مثل أسطورة الثالوث المصري (إيزيس وأوزوريس، وحورس)، ألقت بتأثيرها على عقائد النصارى المصريين الأوائل، وساهمت بشكلٍ كبير في تشكيل النصرانية المحرَّفة، حتى كتب «أودين، توماس سي» كتابه (كيف شكلت إفريقيا العقل المسيحي) الذي صدر في ٢٠٠٧م.

وفي العصر الحديث؛ حدثت القطيعة التي نشأت بفعل سياسة الكنائس الرافضة لمجمل الثقافة الإفريقية، سواء المتعلقة بالعقائد والأساطير، أو الطقوس وأنماط السلوك الفردي والاجتماعي، والتطبيب والتداوي وغيرها، أو التقاليد والرسوم المجتمعية وتراتب المكانة في القبيلة، تلك القطيعة التي صوّرها لنا الأديب العالمي «شنوا أشيبي» في روايته المشهورة (الأشياء تتداعى)، حدثت تلك القطعية بين نزوع الإفريقي لانتمائه الثقافي وموروثه القيمي، وبين المفاهيم الجديدة التي تحاول الكنيسة أن تدرجه فيها، فأحدثت ردة جديدة في أوساط رجال الدين الوطنيين، في محاولة التعبير عن مكنوناتهم الثقافية داخل المسيحية.. وهو ما حاول البعض إيجاد صيغ مقبولة له في إطار ما يُعرف بـ«اللاهوت السياقي».

(١) انظر: الأصول الوثنية للمسيحية، أندريه نايتون، إدغار ويند، كارل غوستاف يونغ، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية، ص (٤٤-٤٥).

وبإزاء ذلك؛ برز تياران في أوساط الكنائس الإفريقية:

التيار الأول: متشبث بتعاليم الآباء الكنسيين، ويرفض منح أي اعتبار للموروث الإفريقي، ويمثل هذا الاتجاه ما يُعرف بـ«كنائس الخط الرئيس» Mainline Churches: MC؛ ويعنى بها الكنائس المتمسكة بخط الإرساليات (كنائس الإرساليات)، مثل الميثودية، المشيخية، الإصلاحية الهولندية.

والتيار الثاني: يرى ضرورة التعبير عن الموروث الإفريقي داخل المسيحية، حتى تحظى بقبول الأفارقة، ويتمثل فيما يُسمى بـ«الكنائس الإفريقية المستقلة أو المبتدئة»[2] African Independent Churches: AIC، خصوصاً بعد أن لاحظ أصحاب هذا التيار ازدواج الشخصية الذي يصيب المسيحي الإفريقي، ويجعله متنازعاً بين موروثاتٍ أَلِفَها، وتُشكِّل محيطه الاجتماعي، وبين نصرانية يدين بها عندما يكون بين جدران الكنائس وأثناء أدائه الصلوات. لهذا نادى أصحاب هذا التيار بضرورة استيعاب الموروث الثقافي الإفريقي في النصرانية، وإن كان مصادماً لأصولها، وأنه إذا كانت النصرانية تريد أن تتمدد في إفريقيا، وتجعلها قارة مسيحية، فلا بد من إنتاج نسخة من المسيحية خاصة بإفريقيا.

هذا الاتجاه الأخير؛ هو الذي أصبح خلال العقود الأخيرة من القرن العشرين يشكل قوة كبيرة، أجبرت قيادة الكنيسة العالمية، بما في ذلك الفاتيكان، على تقديم كثير من التنازلات في أصول المسيحية، بعقائدها وشعائرها، لمحاولة إرضاء أصحاب هذه النزعة القومية.

(٢) ل. نتومبانا، مسارات المسيحية والممارسات الطقوسية الإفريقية: الصمت العام ومعضلة الكنائس الإرسالية:
L. Ntombana, The Trajectories of Christianity and African Ritual Practices: The public Silelance The Dilemma of Mainline or Mission Churches, Acta Theologica, 2015: http://www.ufs.ac.za/ActaTheologica.

وفي هذا الإطار؛ سُـمح للمسيحي الإفريقي بتعدد الزوجات لما لا نهاية، وسُـمح له بممارسة السحر، والتطبب به، كما سُـمح له بالاحتفاظ باعتقاداته حول أرواح الأسلاف وتأثيرهم في الحياة، والأعجب من ذلك امتداد تلك الروح إلى الرموز والأيقونات المعبودة لدى النصارى، مثل «المسيح»، ففي إطار هذه المسيحية الإفريقية يتم تصوير «المسيح الإفريقي» أسود اللون خشن الشعر؛ بخلاف التخيّل المعروف له عند النصارى المتوارث منذ قرون.

وتعود بدايات تيار أفرقة الكنائس إلى أوائل القرن العشرين، حيث شهدت إفريقيا حينها بدايات للوعي القومي، واكتسب هذا الحراك زخماً، مع مساعي إعادة الهوية الثقافية الإفريقية، وكان من ضمن النخبة الإفريقية التي قادت هذا الاتجاه بعض رجال الدين الأفارقة، الذين سعوا إلى استعادة الرموز الإفريقية المحلية، التي يمكن دمجها في إيمانهم المسيحي.. ومع احتدام الجدل حول أسئلة الهوية؛ طُرحت أسئلة تتعلق بكون الفرد إفريقيّاً ومسيحيّاً.. وفي هذا السياق أُعيد تعريف معنى «الإيمان المسيحي»، حيث وَجَد بعض رجال الدين الأفارقة أمثال أماكامبا Amaqaba وأماغوبهوكا Amagqobhoka أنه «لا يوجد تضارب بين ممارسة الطقوس الإفريقية، وبين أن تكون مسيحياً».. ثم جادلوا بأن الأفارقة لم يعبدوا أسلافهم كما اعتقد المبشرون، ولكنهم كرّموا أسلافهم، وكانوا كذلك على الدوام، وقالوا إن الأسلاف الأموات مجرد وسطاء، ينوبون عنهم في التوسط لدى الكائن الأعلى (الخالق)، وأن الاحتفالات ما هي إلا وسيلة لاسترضاء الأسلاف لنقاش الخالق نيابةً عنهم.

ورأى هؤلاء القُسس أن المبشرين، الذين وصفوا الممارسات الإفريقية التقليدية بأنها «الشر» أو «الوثنية»، قاموا بتضليل الأفارقة من أجل أجندة التغريب التي يحملونها، وبدأ هؤلاء القُسس بإنشاء ما عُرف بالكنائس الإفريقية المستقلة، وهي حركة عُرفت آنذاك بـ«الإثيوبانية».

وفي خمسينيات القرن الماضي؛ ظهرت تكيفات للبروتستانتية لدى بعض الكنائس الإفريقية، مثل كنيسة «كيمبانغوي» Kimbanguist، التي شكك زعيمها «سايمون كيمبانغو» Simon Kimbangu في ترتيب الخلاص الديني: هل يرسل الله رجلاً أبيض ليُكرّز؟!.. واعتبر أن عيسى- عليه السلام- «يسوع» كان أسود. ووضع لكنيسته رموزاً مختلفة عن تلك التي لدى الكاثوليك والبروتستانت الأوروبيين، وكان ينظر إلى الممارسة الشائعة المتمثلة في وضع الصلبان والأيقونات في الكنائس على أنها شكل من أشكال عبادة الأصنام[1].

وناقش الأعضاء في هذه الكنائس ممارسات لم يجرّمها الكتاب المقدس علانية؛ مثل تعدد الزوجات، الذي تُدينه الكنائس الأوروبية، ورأوا أنه مقبول؛ وفقاً لتفسيرهم لبعض المعلومات التي وردت في العهد القديم.. كما أدمجوا ممارساتهم الخاصة للعلاقات مع الأشياء والأفعال، مثل الرقص والغناء[2].

وفي زامبيا؛ برز «عمانويل ميلينجو» Emmanuel Miling رئيس أساقفة العاصمة لوساكا، كأحد أقوى دعاة المسيحية الإفريقية، حتى إن الفاتيكان استدعاه عام ١٩٨٢م لمناقشته في أفكاره ومحاولة غسل دماغه، ولمّا أصر على فكرته تم إعلانه مرتداً.. وقال عمانويل في كتاب له عن صدامه مع الفاتيكان: «إن محاولة إقناعي بأن سلامة عقيدتي المسيحية لا تتم إلا بتبنّي الحضارة والثقافة الأوروبية هي بمثابة إكراهي على تغيير شخصيتي بالقوة، وإذا جاز أن الله قد أخطأ بأن

(١) علي مزروعي، «الدين والثقافة السياسية في إفريقيا»، مجلة الأكاديمية الأمريكية للدين، المجلد ٥٣، لا. ٤، ١٩٨٥، ص (٨١٧-٨٣٩). JSTOR www.jstor.org/stable/1464277.

(٢) ٣٧ بول كولمان، «تصنيف المسيحية الإفريقية: الماضي والحاضر والمستقبل: الجزء الأول»، مجلة الدين في إفريقيا، المجلد ٤٠، لا. ١، ٢٠١٠. www.jstor.org/stable/20696840. pp.3–32.

خلقني إفريقيّاً؛ فإن ذلك لم يتضح لي»[1].

ظاهـــرة الكنائس المســـتقلة فـــي إفريقيا جعلت الكنيسة العالمية تشـــعر بالقلق، خصوصاً الكاثوليكية، وتمثل هذا القلق بصورة واضحة في الزيارات المتكررة التـــي قام بها بابا الفاتيكان، بـــدءاً من عام ١٩٦٩م، ثم مايو ١٩٨٠م، ثم في فبراير عام ١٩٨٢م، ثم ١٩٨٨م[2].. وهاتـــان الزيارتان كانت لهما آثـــار كبيرة، دفعت باتجاه دعم المســـيحية الإفريقية، حيث وُجـــه البابا بموجة احتجاجية من قِبل القساوسة الإفريقيين اعتراضاً على سيطرة الأوروبيين وتدخلهم في شؤون بلادهم الداخلية، بل طُولب، في زائير، بتضمين بعض العبادات الإفريقية فـــي القـــداس البابوي، ممـــا اضطره لمـــدح الثقافة الإفريقية، ولكنه رفض بلطف تضمين العبادة الزائيرية في قداســـه البابـــوي، مما أثـــار حفيظة القساوســـة الإفريقيين، الذين شـــعروا بالإهانة من حَبر الكاثوليكية الأعظم، فأرســـلوا وفداً إلـــى الفاتيكان للاحتجاج على ذلـــك «الحظر»، يشـــرحون من خلاله بوضـــوح الأزمة النفســـية والثقافية التي يواجهونهـــا داخل النصرانية، ويوضحون كيف أن المســـلمين الأفارقة يجدون الراحة النفسية في اعتناقهم الإسلام، ويرون أن الإسلام واقعي في مواجهة مشكلاتهم الفردية والجماعية، وأنه نموذج مناسب للأفارقة لسهولة شعائره ومواجهة الحياة.

كان ذلك أمراً مفزعاً للكنيســـة، فـــي وقتٍ تنادي فيه بضرورة التعاون لتهدئة الدعوة لأســـلمة النصارى، فسمحت مضطرة بممارسة المعتقدات الإفريقية[3].

الخلاصة:

يمكن القول إن المســـيحية، خلال مراحل دخولها إفريقيا، أثرت في المجتمعـــات الإفريقية وتأثرت بها، وأحدثت تحـــولات ونقلات اجتماعيـــة واضحة، ولكن

«إن محاولة إقناعي بأن سلامة عقيدتي المسيحية لا تتم إلا بتبنّي الحضارة والثقافة الأوروبية هي بمثابة إكراهي على تغيير شخصيتي بالقوة»

عمانويل ميلينجو رئيس أساقفة العاصمة لوساكا

تلـــك التحولات كانت فـــي الغالب الأعـــم ذات مردود ســـلبي على المجتمعات الإفريقية، حيث ضربت العمق الثقافـــي والقيمي، ولم تقدم بديلاً جيداً، فقد كرســـت التبعيـــة للحضارة الأوروبية الغربية، وعملت على طمس الهوية الإفريقيـــة، وأحدثت تصدعات كبيرة في البنيان الاجتماعـــي الإفريقي ومنظومتـــه القيمية.. وأحبطت المســـيحيةُ فرصَ التنمية والتطـــور الاقتصادي للدول الإفريقية بنشرها اقتصاد السوق الحر، وتكريس الثقافة الاستهلاكية الغربية.

وبالمقابـــل؛ كانت هنـــاك ثـــورة ثقافية قام بها المســـيحيون الأفارقة ضد محاربة الكنيسة لنظمهم الاجتماعية ونســـقهم الثقافي، ومحاولة فـــرض الثقافة الأوروبية عليهـــم، ونتج عن ذلك تغييرات بنيوية في المســـيحية التـــي يعتنقونها، نزعت بها إلى الاســـتقلال عن ديانة الإرساليات، وبناء معالم ديانة مســـيحية إفريقية مســـتقلة.. لتجد الكنيســـة العالمية نفسها مضطرة لابتلاع العلقـــم الإفريقـــي، لأن المقابل هو الانســـحاب من المســـيحية والنزوح نحو الإســـلام، فلم تجد إلا الســـكوت ومباركة المزيـــج الديني الإفريقي المركب من العقائد المحلية والطقوس والتقاليد الإفريقيـــة، والتعاليم المســـيحية، وهو ما يُعرف بـ«المسيحية الإفريقية» ■

(١) نقلاً عن: د. حسن مكي، مصدر سابق، ص١٣٢.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٤.

(٣) التنصير في إفريقيا أساليبه ووسائله وآثاره، مرجع سابق، صفحة (١٧-١٩)، بتصرف.